الفتاة المفقودة

رواية تاريخيَّة عرَّبها بتصرُّف الاب لويس شيخو اليسوعي

١

كان الامير فرنسيس دي برمنت الشهير ببارون دي أدراي (baron des Adrets) احد قوَّاد عصره المبرَّزين ينتمي الى اسرة عريقة في الشرف تقطن في بلاد دوفيناي من اعمال فرنسة. وكان لهُ قصرٌ واسع الارجاء شاهق البنيان اشبه بقلعة حريزة ورثهُ من اجدادهِ يُدعى مُنْسيغور (Monségur) اي الجبل المنيع

فلمَّا انتشبت في فرنسة الحروب المعروفة بالحروب الدينيَّة في أواسط القرن السادس عشر بين الهوغنوت والكاثوليك عهد الاَّرلون قيادة شرذمة من جندهم الى البارون دي أدراي فكان ينقضّ بها كالنسر القشعم على المدن والقرى المجاورة فينهب ويساب ويقتل ويحرق ثمَّ يعود غانمًا الى قصرهِ وهو فيهِ اعزّ من عقاب الجوّ في وكره. وكثيرًا ما سارت الجيوش الجرَّارة لمقاتلتهِ في حصنهِ بيد انها تعود بخفي حنين لانَّ البارون كان قد ابتنى لهُ في اسفل حصنهِ نفقًا يمكنهُ من الخروج من قلعتهِ فيراهُ اعداؤهُ في اعقابهم وهم يظنُّونهُ في قبضة يدهم يتضوَّر في حصنهِ من الجوع. وكان النفق المذكور مظلمًا كثير الشِّعَب لا يعرفهُ غيرهُ مع المهندس الذي قام بصنعهِ وكان هذا رجلًا ماهرًا في حرفة البناء. بيد انهُ ابكم اخرس شديد التأتي بيديهِ لا يفشي بسرّهِ ولو ذاق الموت

ثمَّ تقلَّبت الاحوال على البارون دي أدراي ورجع الى دين آبائهِ. فتقم عليهِ الهوغنوت وحاولوا الانتقام منهُ مرارًا فردَّهم خائبين. وفي بعض الغزوات تمكَّنوا من المهندس الاخرس وتهدَّدوهُ بالقتل ان لم يطلعهم على سرّ البناء ومدخل النفق ليسدُّوهُ ويتخلَّصوا من البارون صاحبهِ لكنَّ المهندس آثر الموت على الخيانة فقُتل وذهب شهيدًا لامانتهِ في خدمة اميرهِ

٢

ثمَّ مات بعد ذلك فرنسيس دي برمونت في ٢ شباط ١٥٨٦ دون ان يكشف بسرّهِ لاحد من اقاربهِ. امَّا القصر فانتقل بالوراثة الى عائلة براكنتال وكانت تمتُّ بقرابة الى أسرة دي برمونت بينهما رحمٌ وشيجة وكانت السيدة دي براكنتال ارملةً منقطعة في

قصرها الى اعمال البرّ وتربية ابنةٍ لها تُدعى لوسيًّا وهي خريدة كاملة الصفات ذات فهم متوقّد وجمال بارع

فلمّا كانت سنة ١٧١٥ خطب احد اشراف بلاد دوفيناي الفتاة لوسيًّا فاجابت امُّها الى طلبه وتمّت حفلة الزفاف بعد ثلاثة اشهر بغاية ما يمكن من الأبهة والفرح حضرها جلّة القوم واعيان بلاد غرينوبل والمدن المجاورة. وأُقيمت الرتبة الدينيّة في صبيحة ذلك النهار في كنيسة قريبة من القصر. ثمّ خرج العريسان يحفّ بهما عدد عديد من الاقارب والاحباب فدارت كؤوس الافراح وعلت أصوات الطرب مدّة ساعات طويلة الى ان شعرت الفتاة بصداع خفيف فخرجت الى حديقة القصر لتتنسم الريح وحدها بمعزل عن القوم. لكنّها وجدت الزوّار في كلّ الانحاء فعنّ لها ان تنزل الى دهليز كان في احدى زوايا الحديقة كان خدمُ القصر يلقون فيه الحطب وبعض اثاث الدار لفصل الشتاء. وهذا الدهليز كان عادةً مغطًّى بالاعشاب وبعض العوارض من الخشب. فأزالت لوسيًّا الاعشاب وانسلّت بين العوارض الخشبيّة دون ان يشاهدها احد

فبعد ساعةٍ حان وقت الغداء فقام الجميع ودخلوا ردهةً واسعة من ردهات القصر مزيّنة بالنقوش الانيقة أُعدّت فيها وليمة فاخرة لم يُقتصر فيها على شيء من اسباب الهناء. فلمّا احتفل المدعوّون طلب العريسُ عروسَهُ ليقوما بشؤون المأدبة كألوف عادة الاوربيين فلم يجدها. فسأل عنها فقيل لهُ انّها خرجت منذ ساعةٍ الى حديقة القصر وقد خرج الخدم الى استدعائها فلا تلبث ان ترجع. فانتظرها زوجها الى ان اضجرهُ الانتظار فخرج لينتهر الخدم ويبكّتهم على بطاء حركاتهم. فاتوهُ للحال من كلّ أوب ووجوههم كاسفة يقولون: قد طلبنا سيدتنا في الحديقة بل في كلّ انحاء القصر فلم نجد لها اثرًا

— ما هذا القول ؟ هلمّوا بي فانّها ولا مراء تحت شجرة من اشجار الحديقة ولعلّها اضناها التعب فنامت

قال هذا وخرج اسرع من لحة العين يدور في الجنينة وينظر في كلّ انحائها فلم يجد احدًا. فسأل عنها الحضور فقيل لهُ انهم رأوها ثمّ توارت عن عيانهم وراء دغل النبت ولم يعودوا ينظرونها

وكان المدعوّون في اثناء ذلك ينتظرون العروسين فلمّا فرغ صبرهم خرجوا ليستطلعوا حقيقة الامر فرأوا العروس الجديد مع الخدم يركضون حيارى في كلّ جانب وهم

ينشدون ضالّتهم الكريمة ويدعون لوسيًا باسمها. ولكن لم يُسمع لاصواتهم غير صدى الاودية المجاورة. فظنّوا انها دخلت احدى غرف القصر دون ان يُشعر بها وانها تستريح في بعض المقاصير المنفردة فتفقّدوا القصر من اعلى طوابقه الى اسفلها فلم يجدوا لمطلوبهم اثرًا

فتبدّلت حينئذٍ الدنيا في اعين الجمهور ورنق كأس عيشهم وجعلوا يحدسون الاحداس المفجعة. وكانت ام الفتاة وزوجها في قلق لم يدركهُ وصف. ولمّا لم يجدا نتيجة لتفتيشهما ترقرقت الدموع في عيونهما الى ان انصبّت كأنها المزن المدرار

وما زاد الام والاقارب حزنًا انهم كانوا يعرفون للقصر مزلقة متّصلة باحد جدرانهِ ليس بعيدًا عن الدهليز الذي سبق ذكرهُ. وكانت هذه المزلقة موشّاة بالزهور الطبيعيّة تنتهي الى حافة ضيّقة قليلة الارتفاع والحافة تعلو واديًا عميقًا في قعرهِ صخور ناتئة واشجار من السنديان والشربين. وما كان احد يقترب من المزلقة المذكورة الّا حذِرًا متحرّزًا يتشبّث باغصان الشجر لئلا تزلج رجلهُ فيتدهور الى الوادي. ولم تكن الحافة السفلى لتقي الساقط اذا عثرت رجلهُ فبلغها بثقل جسمهِ بل كان لا محالة يفقد الموازنة وينكبّ لوجههِ في الهوّة. فظنّت الامّ المسكينة انّ ابنتها اتت هذا المكان فنامت بقربهِ وانّها في نومها جفلت فزحفت الى المزلقة فسقطت منها الى الهوّة

فما خطر هذا الفكر على بال السيدة دي براكنتال حتى تدفّقت من اجفانها العبرات وعلا صراخها فابكت كلّ من سمعها. ثمّ اسرع الخدم فنزلوا الى اعماق الوادي فادركوهُ بعد دورة طويلة حول الجبل فبحثوا بحثًا نعمًا الى عصر ذلك النهار ثمّ عادوا خائبين ولم يجدوا للجثة اثرًا. فقال البعض لعلّ الوحوش الضارية التي في هذا الوادي اختطفتها لتفترسها في أوكارها

وان سأل القارئ كيف اهمل اصحاب القصر النزول الى الدهليز الذي كان في طرف الحديقة أجبنا انّهم لم يتغاضوا عن الامر لكنهم لم يكونوا يعرفوا من حقيقة هذا الدهليز سوى انّهُ ينتهي الى سربٍ واسع لا منفذ لهُ فلمّا بلغوهُ وداروا في جوانبهِ لم يجدوا فيهِ غير الخفافيش كانت تأوي اليهِ صلب نهارها فخرجوا آيسين من وجدان الفتاة هنالك

وكانت الشمس في أثناء ذلك مالت الى الغروب فخرج كثيرون من المدعوين راجعين الى منازلهم وقراهم المجاورة. وكانوا في طريقهم لا يتحدّثون الّا عن تواري لوسيًا المنكودة الحظ يوم زفافها فيقابلون بين افراح الصباح وأحزان المساء

٣

امَّا عائلة الابنة وأُسرة زوجهـا فانَّهم صرفوا تلك الليلة في النحيب والعويل لم تكتحل اجفانهم غماضاً. وكان مع ذلك تتنازعهم عوامل الرجاء. يعلّلون النفس بالامل لعلّهم يقفون للفقيدة على خبر

وفي صباح اليوم التالي جاء بعض الفلاحين ممَّن سمعوا بخبر فقد السيدة لوسيًّا فاعلموا اصحاب القصر انَّ يوم امس كان قوم من الهمج المعروفين بالبوهيميين (النَّور) يدورون في جوار القصر وانَّهم فرّوا هاربين الى جهة الجنوب واما أنهم هم الذين احتملوا الفتاة ليفتنوا بما عليها من الحلي الثمينة من اللؤلؤ والمرجان ومصاغات الذهب

فما سمعت السيدة دي براكنتال هذا الكلام حتى طار لبُّها شعاعاً. فاسرعت الى خدم القصر واوعزت اليهم بان يركبوا الخيل المطهَّمة فيجدُّوا في اثر الهاربين ويخلّصوا ابنتها ان وجدوها في ايديهم

فامتطوا الجياد مسرعين ولم يلبثوا بعد ساعات ان ادركوا اولئك الرعاع فاحاطوا بهم وهدَّدوهم بالقتل ان لم يستسلموا. فهلع البوهيميُّون ولم يروا منجاةً الَّا بطلب الامان. فحينئذٍ نزل الفرسان وقيَّدوهم وفتشوا في عرباتهم فوجدوا اشياء كثيرة مسلوبة فاخذوها ثم اخذوا يستنطقونهم فاقرُّوا انهم اختلسوا ابنتين صغيرتين في ضيعة لا تبعد عن ماكون . امَّا ابنة السيدة دي براكنتال فحلفوا اليمين المحرّجة انَّهم لم يعرفوا من امرها شيئاً

فأُلقي اولئك الانذال في الحبس ووعدهم اهل الابنة بالمواعيد الحسنة ان اطلعوهم على امر فتاتهم فلم يقرُّوا بشيء. وأُطلق سبيلهم. لكنَّ السيدة دي براكنتال تطميناً لبالها ارسلت قوماً من الاجراء ليطلبوا لابنتها خبرًا في كلّ مكان يأوي اليها البوهيميُّون في فرنسة وايطالية واسبانية وتكلّفت لذلك نفقات بالغة فذهبت كلّ مساعيها ادراج الرياح فعادت الى فكرها الاول وجزمت بانَّ ابنتها وقعت في مزلجة القصر فافترستها الذئاب. وعليه بنتْ لفقيدتها العزيزة شبه قبر حيث توهَّمت انَّها فُقدت. وامرت بان يُكتب على صليب من الحديد اسم كريمتها « لوسيًّا دي براكنتال » مع تاريخ غيبتها في ٢٥ حزيران من سنة ١٧١٥. دون ان تصرّح بوفاتها

ثمَّ قضت الام الثكلى اياماً قليلة في القصر كئيبة ولمَّا لم تجد لحزنها سلواناً خرجت

الى ضيعة قريبة منهُ فأوت هناك معتزلة عن العالم الغدَّار منقطعةً الى الصلاة واعمال الرحمة. الَّا انها كانت قبل مبارحة القصر امرت بان يبنى للمزلقة حافةٌ مرتفعة ودرابزون لئلا يصيب احدًا ما اصاب ابنتها فيهوي الى قعر الوادي. ولم يبقَ منذ ذاك الوقت في القصر غير حاجب مع امرأتهِ سلَّمتهما السيدة مفاتيح قصرها ووكلت اليهما حراستهُ

وبقيت الامور على هذه الحال سنين عديدة. وألسنُ الاهلين تتناقل عن قصر البارون دي ادراي الروايات العجيبة فيزيدون الخرافات التي تُسوِّلها لهم مخيلتهم وكانوا يزعمون انَّ الجن تقطن هذا القصر وانَّ ابنة السيدة دي براكنتال لم يختطفها غيرهم. وكانوا اذا أرادوا ان يُسكتوا صغارهم يتهدَّدونهم بان يأخذوهم الى قصر البارون

وكان مع ذلك من وقت الى آخر يسمع الزوَّار بخبر هذا القصر فيحملهم حبهم بالماديات الى ان يسترخصوا من السيدة دي براكنتال ويتفقَّدوا انحاءهُ لاسيما قاعة البارون دي ادراي التي فيها كانت اسلحتهُ كسيفهِ ودرعهِ وخوذتهِ وبوق صيدهِ معلَّقة على الجدران. وكان الحاجب يقصُّ على الزوَّار قصة العروس المفقودة ويريهم قبرها

وكان مع ذلك لا يزال سرّ اختفاء لوسيا دي براكنتال مكتومًا يروي عنهُ الرواة امورًا متناقضة وأخبارًا متضاربة الى ان وقع الحادث الآتي ذكرهُ فاثار ما كان كامنًا وأوقف الناس على سرّ البارون دي أدراي بعد ان بقي نحو قرنين دفينًا لا يعلم بهِ بشر

٤

لمَّا كانت السنة ١٧٤٥ قدم بلاد دوفيناي اربعة شبَّان من وجوه ليون خرجوا من وطنهم ايام احتدام القيظ لترويح النفس. فمرُّوا ليس بعيدًا من قصر « مُنسيور » فقال احدهم اسمهُ موريس دي لوساك (وقيل دي رابَستين) : هلمُّوا بنا نزور هذا القصر فاني قد قرأت في ترجمة البارون دي أدراي ما رغَّبني في رؤياهُ

فاجاب للحال احد رفقة موريس : نعمَ ما ارتأيت وقد سمعتُ انا عنهُ من والدتي عجائب قصَّتهُ عليَّ منذ نعومة اظفاري

ومن ساعتهم زاغوا عن طريقهم وتفرَّعوا الآكام الى ان بلغوا الرابية التي فوقها الصرح المقصود ثمَّ طابوا في الضيعة الرخصة من السيدة دي براكنتال وكانت لم تزل في قيد الحياة ان يزوروا القصر . فاجابت الى طلبهم وأوصتهم ان يصلّوا على قبر ابنتها

فاسرع الشبّان وتوقّلوا الربوة كلمحة البصر وادركوا باب القصر بعد برهة من الزمان في وقت الهاجرة

ففتح لهم الحاجب ورحّب بهم لانهُ كان يعيش مع عائلتهِ منفردًا لا يرى الناس الّا قليلًا فكان اذا قدم منهم احد يأنس بهِ ويسرّ الى محادثتهِ

فبعد ان استروح الشبّان هنيهةً دعاهم الحاجب الى زيارة القصر . وكان قسم منهُ قد استولى عليهِ الخراب . فادخلهم في مقاصيرهِ وقصّ عليهم ما يعرفهُ من امرهِ وأخبار بانيهِ . وكان الزوّار يتعجّبون ممّا يشاهدونهُ من ضخامة بنيانهِ ومتانة جدرانهِ واتّصال مقاصيره ببعضها وسعة غرفهِ واعجبهم منظر اسلحة البارون دي أدراي وكان قد علاهـا الصدأ لطول الايّام وهي مع ذلك تنطق عن قوّة ساعد حاملها

ولمّا انتهوا من زيارة القصر اخذوا يدورون في حديقتـهِ حتى انتهوا الى ضريح لوسيّا دي برا كنتال وبعد ان اسمعهم الحاجب قصّتها الفاجعة جثوا على ضريحها فصلّوا عن نفسها كما وعدوا والدتها (ستأتي البقية)

مطبوعات شرقية جديدة

ELEMENTI DI GRAMMATICA TURCA OSMANLI
con paradigmi, crestomazia, e glossario
per il D^r Luigi Bonelli, Milano, 1899, *pp. VIII-199*
مبادئ اللغة العثمانية بالايطالية للدوكتور ل . بونلي

هذا الكتاب مع صغر حجمهِ يشتمل على خلاصة ما اتصل الى وضعهِ نحويو اللغة العثمانيّة . فان صاحبهُ لم يكتفِ بان يودعهُ ما نالهُ باختبارهِ اليوميّ وهو مدرّس التركيّة في المكتب الشرقي الملكي في نابولي بل راجع ايضًا مصنّفـات جلّة الكتبة وبنى عليها تأليفهُ ناهجًا فيهِ طريقة سهلة المأخذ قريبة المنال تحاشى فيها الاسهاب المملّ والاختصار المخلّ . وقد قسم كتابهُ الى ثلاثة اقسام اختصّ اولها بتعريف مقدّمات اللغة . وبحث في ثانيها عن تصريف الاسم والفعل وخواصّ الحرف . وفي هـذا القسم عدّة جداول تمكّن الطلبة من حفظ الفعل التركيّ وادراك خواصّهِ . امّا القسم الثالث فدارهُ على نحو اللغـة العثمانيّة وهو غاية في القصر لكنّهُ كافٍ لبيان التراكيب الشائعة عند كتبة اللغة التركيّة